التضمين في القرآن الكريم دراسة نحوية صرفية دلالية

بتول جاسم محمد

وزارة التربية/ مديرية تربية الرصافة الثالثة/ ث الفضائل للمتفوقات

Franciscoyael١١٣٣٣٣@Gmail.com

الملخص:

موضوع التضمين من الموضوعات التي لم تحظَ بعناية من قِبل الدراسين في تخصص الدراسات القرآنية كما ينبغي، وهو أسلوب يمكن حمل كثير من الآيات القرآنية عليه دون تكلف. وقد تحدث عنه ابن جني -رحمه الله- بقوله: «ووجدتُ في اللغة من هذا الفنّ شيئًا كثيرًا لا يكاد يُحاط به؛ ولعله لو جُمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتابًا ضخمًا... فإنه فصل من العربية لطيف، حسن يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها.

وذكر على ذلك الأمثلة من لغة العرب ومن القرآن الكريم، فقال: «اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدَّى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله -عزّ اسمه-: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: ١٨٧]، وأنت لا تقول: رفثتُ إلى المرأة، وإنما تقول: رفثتُ بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـ(إلى) كقولك: أفضيتُ إلى المرأة، جئت بـ(إلى) مع الرفث إيذانًا وإشعارًا أنه بمعناه» [١].

الكلمات المفتاحية: (التضمين في القرآن الكريم، صرفية دلالية).

Embedding in the Holy Qur'an: A grammatical, morphological, and semantic study

Batoul Jassim Mohammed

Ministry of Education/Rusafa Third Education Directorate/The Virtues for Outstanding Female Students

Gmail.com@113333Franciscoyael

Abstract :

The topic of inclusion is one of the topics that has not been given as much attention by scholars in the field of Qur'anic studies as it should be. It is a method in which many Qur'anic verses can be interpreted without any fuss. Ibn Jinni – may God have mercy on him – spoke about him, saying: "I found in the language a lot of this art that can hardly be encompassed; Perhaps if most of it (not all of it) had been collected, it would have been a huge book... for it is a nice and beautiful chapter of Arabic that calls for familiarity with it and understanding of it. He mentioned examples of this from the Arabic language and from the Holy Qur'an, and said: "Know that if a verb is in the meaning of another verb, and one of them is crossed by one letter and the other by another, then the Arabic language may expand so that one of the two letters marks the location of its companion, indicating that this verb is in the meaning of that other, so that is why it came. With it in the usual letter with what is in its meaning, and that is like the words of God – glory be to His name –: {It is lawful for you on the night of fasting to have sexual intercourse with your wives} [Al-Baqarah: 187], and you do not say: I had sexual intercourse with the woman, but rather you say: I had sexual intercourse with her or with her, but when Here, sexual intercourse was in the meaning of ejaculation, and you used to say, "I led with" (to), as in your saying: "I led with (to) the woman".

Keywords: (inclusion in the Holy Qur'an, semantic morphology).

المقدمة:

وقد تتبعتُ كثيرًا من نقول المفسرين حوله، ولاحظت أن الإمام الطبري -رحمه الله- قد وجّه عددًا من الآيات في ضوء أسلوب التضمين، ولكنه لم يقدمه على القول بتناوب الحروف، وابن كثير -رحمه الله- الذي استحسن القول بالتضمين في مواضع من تفسيره أغفله في مواضع أخرى. ولم أجد عناية كبيرة به من قبل المفسرين الأوائل من أهل اللغة كأبي عبيدة والأخفش الأوسط والفراء وابن قتيبة مكتفين بتوجيه الآيات على القول بتناوب الحروف. ومعلوم أن القول بتناوب حروف المعاني هو قول جُلّ نحاة الكوفة، والقول بالتضمين قول جُلّ نحاة البصرة وعلى رأسهم الخليل وتلميذه سيبويه -رحمهم الله-. وأسلوب التضمين أحد أبرز أساليب العرب التي خرّج عليها المفسرون ولا سيما من المتأخرين كثيرًا من الآيات القرآنية الكريمة، وهو يأتي بعد أسلوبي الحذف والإضمار في علم البلاغة من حيث الأهمية. ولا يأتي التضمين في كلام العرب إلا لفائدة زائدة كما قال السيوطي، وتؤدي الكلمة فيه مؤدّى كلمتين كما قال ابن هشام النحوي، وهو بحر لا ينضب كما قال ابن جني في خصائصه، وكتاب ابن جني «الخصائص» من أكثر المصادر اللغوية القديمة التي عنيت بهذا اللون من التعبير؛ فعليكم به فهو من أنفس الكتب على الإطلاق لطالب العلم. وقد نقل ابن جني -رحمه الله- عن المفسرين القول بالتضمين؛ مما يعني سبق المفسرين إلى بحث التضمين، حيث قال: «ومنه -أي التفسير على المعنى دون اللفظ وهو التضمين- قول المفسرين في قوله تعالى: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}، أي مع الله، ليس أنَّ (إلى) في اللغة بمعنى (مع)؛ ألا تراك لا تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد: سرت مع زيد، هذا لا يعرف في كلامهم، وإنما جاز هذا التفسير في هذا الموضع؛ لأن النبي إذا كان له أنصار فقد انضموا في نصرته إلى الله، فكأنه قال: من أنصاري منضمين إلى الله؛ كما تقول: زيد إلى خير، وإلى دَعَة وستر، أي آوٍ إلى هذه الأشياء ومنضم إليها. فإذا انضم إلى الله فهو معه لا محالة. فعلى هذا فسر المفسرون هذا الموضع) [٢]. وأحب أن أشير هنا إلى مسائل مهمّة حول الموضوع: الأولى: أن نسبة القول بتضمين الأفعال معاني مناسبة للحروف للبصريين كافة، ونسبة القول بتناوب الحروف للكوفيين كافة ليس دقيقًا بالقدر الكافي؛ فقد وجدت إشارات للفراء (٢٠٧هـ) يقول فيها بالتضمين وهو من كبار نحويي الكوفة؛ حيث يقول عند قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}: «يشربها، ويشرب بها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها يروى بها وينقع»[٣]. وهذا قول واضح بتضمين فعل يشرب معنى الفعل يروى. كما وجدت للمبرّد محمد بن يزيد -رحمه الله- (٢٨٥هـ) إشارة للقول بتناوب الحروف شريطة أن يأتي الحرفان في معنى واحد، وليس دائمًا بل أحيانًا.

والتعبير الأفضل أن يقال: إنّ القول بالتضمين رأي أكثر البصريين، والقول بنيابة الحروف قول أكثر الكوفيين، وقد أعجبني تعبير ابن السيد البطليوسي حيث قال في هذا في كتابه الثمين «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» عند تعرضه لموضوع نيابة الحروف بعضها عن بعض: «أجازه قوم من النحويين أكثرهم كوفيون، ومنع منه قوم أكثرهم بصريون»[٤]. الثانية: من أفضل من اعتنى به من المتقدمين ابن جني في «الخصائص»، والمرادي في «الجنى الداني في حروف المعاني»، وابن القيم ولا سيما في «بدائع الفوائد»، وابن هشام في «مغني اللبيب»، والسيوطي في «همع الهوامع». ومن المتأخرين الطاهر ابن عاشور –رحمه الله– في «التحرير والتنوير»، ومن المعاصرين مما اطلعت عليه كتاب «الحروف العاملة في القرآن الكريم» لهادي عطية الهلالي (ص٣٨٠ وما بعدها). وعثرت أخيرًا على العدد التاسع والأربعين من مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية التي تصدر في الكويت ربيع الأول ١٤٢٣هـ، فوجدت فيها بحثًا ضافيًا للدكتور زيد عمر عبد الله بعنوان: «أسلوب التضمين وأثره في التفسير» وصل فيه إلى نتائج من أهمها مما لم أذكره أعلاه: – أن ابن عطية في «المحرر الوجيز» مع ثناءه على أسلوب التضمين ووصفه له بأنه قول الحذّاق إلا أنه لم يُعْنَ به كثيرًا ولم يقدمه على القول بتناوب الحروف. – أن أبا حيان المفسر وصف القول بتناوب الحروف بأنه زعم، وبالرغم من ذلك لم يكن القول بالتضمين موضع عنايته في التفسير. – أن الزمخشري مع كونه امتدادًا لمنهج المدرسة البصرية في النحو عند من يرى ذلك إلا أن التضمين لم يحظَ بعنايته في كلّ المواضع؛ بل قال به في مواضع وأعرض عنه في أخرى. وعلى كلِّ حالٍ فليس القول بالتضمين هو الأصل في القرآن ولا في اللغة، ولكن الذي يبدو لي أنه أسلم من حيث الاعتراضات التي وجهت إلى القول بتناوب الحروف، ويحتفّ بكلِّ نصٍّ من القرائن الخارجية ما يرجح القول بالتضمين أو القول بتناوب الحروف، والحذق بذلك يحتاج إلى عناية طويلة، وبصر نافذ بأساليب العرب في شعرها ونثرها للتمرّس بالترجيح في مثل هذه المسائل الدقيقة.

: مفهوم التضمين لغة واصطلاحا

التضمين لغة: ورد في الكتب والمعاجم العربية القديمة " التضمين " بعدة معان وصيغ مختلفة منها: الكفيل، التغريم، الاشتمال، الزمان، الإبداع جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة " ض–م–ن" ضمن الشيء وبه ضمن وضماناً: كفله به وضمنه إياه : كفله ابن الأعرابي : فلان ضامن وضمين وسامن وسمين وناظرُ ونظير وكافل وكفيل[٥] هنا حمل معنى الكفالة وفي الحديث إشارة عن ذلك الحديث: " من مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة أي ذو ضمان على الله " .

التضمين اصطلاحاً:

عند النحويين: لعل أول من بدا إلى تعريف التضمين من النحاة هو ابن هاشم بقوله: " قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضمينا " [٦]

فالتضمين عند ابن هشام هو إشراب أو إعطاء لفظ معنى آخر وتكون الأحكام نفسها، كأن يضمن الفعل اللازم معنى الفعل المتعدي نحو قوله تعالى:" ...وما تفعلوا من خير فلن تكفروه ..." وهنا ضمن معنى " تحرموه فعدي إلى الإثنين لا إلى واحد كما ورد التضمين في كتاب البرهان في القرآن الكريم للزركشي حيث يقول: " وهو إعطاء الشيء معنى الشيء وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف عند البلاغيين: ورد في كتاب الجامع في علوم البلاغة على أنه أن يضمن الشاعر كلامه بيتا أو بعضا من شعر غيره .

فالخلاف بين الاقتباس والتضمين أن الأول الأخذ من القرآن والحديث بينما التضمين هو الأخذ من الشعر والنثر ويأخذ الشاعر ما ضمنه من كلام غيره هلاليف صغيرين حتى لا يتهم بالسرقة .

المطلب الثاني: أنواع التضمين

التضمين البديعي: أخذ التضمين في علم البديع مغموماً مغايرا عن مفهومه في علم البيان ومن أقدم من ذكر التضمين في هذا المجال نجد ابن المعتز " ٢٦٩ هـ" ولكن دون أن يعرفه وهذا ما يظهر في المثال التالي:

فبت والأرض فراشي وقد غنت قفا نبك مطاريبي"[٧].

فقوله فقفا نبك مأخوذة من مطلع معلقة أمرئ القيس حيث يقول أمرئ القيس في معلقته" فقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلي بسقط اللوى بين الدخول فحومل " حيث يقصد هنا أخذ شاعر من شاعر آخر بيتاً أو دونه وتضمينه في شعر .

التضمين البياني: ورد التضمين في قسمين رئيسين من أقسام البلاغة العربية هما البيان والبديع وقد أخذ في كل منهما معنى خاص حيث يعد الرماني(٣٨٦هـ) من أوائل من تعرض للتضمين البياني إذ جعله باب من أبواب البلاغة وعرفه بقوله" تضمين الكلام هو حلول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة يدل عليه الكلام دلالة القياس " [٨].

فالأول كذكرك الشيء بأنه محدث فهذا يدل على المحدث دلالة الأخبار والتضمين في الصنفين جميعاً، إلا أنه على الوجه الذي بيننا وكذلك سبيل مكسور ومنكسر وساقط ومسقط، وأما التضمين الذي يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز في كلام الله عز وجل خاصة وكل آية لا تخلو من التضمين لم يذكر باسم أو صفة فمن ذلك " فقد تضمن التعليم لاستنتاج الأمور على التبرك به والتعظيم لله بذكره وأنه أدب من آداب الدين وأنه إقرار بالعبودية ويتضح من خلال كلم الرماني في كتابه النكت في الإعجاز القرآني على أن التضمين أمران:

الأول: إن صيغة المفعول يمكن أن تتضمن معنى صيغة اسم فاعل نحو : مكسور ومنكسر

الثاني: أن الآية القرآنية تتضمن معاني أخرى والتضمين باب من أبواب البيان في مجاز الحذف، أي حذف الحال ومثال ذلك الحمد على الهداية في الآية " ولتكبروا الله على ما هداكم " فتضمن حذف المعنى الأصلي وهو نهاية الحمد إلى الله عز وجل.

التضمين العروضي:

يأخذ التضمين في علم العروض منحى مخالفا عن علمي البيان والبديع فهو على ما يقول الجوهري في كتابه الصحاح:

" المضمن من البيت ما لا يتم معناه إلا بالذي يليه "، وعرفه أيضاً ابن رشيق بقوله:" والتضمين أن تتعلق القافية أو لغة مما قبلها بما بعدها " مثل له بقول النابغة .

ويتضح لنا أن التضمين في الشعر لا يعد عيباً وهو بذلك قد قيس عندهم على لغة العرب وهذا رأي بعض القدماء، وقد شاركهم المحدثون الرأي، لأن تركيب القصيدة يقع على مقام الوحدة الموضوعية .

التضمين النحوي:

قرر النحاة أن التضمين واقع في اللغة، وأنه ركن من أركان التحليل لبعض المسائل النحوية .

حيث عرفه ابن جني في كتابه الخصائص بقوله" أعلم أن الفعل إذا كان بمعنى الفعل آخر، وكان أحدهما بالحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيدانا بأنه هذا الفعل في معنى ذلك الفعل فجيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك كقوله تعالى:" **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ** " [٩] **وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول رفثت بها أو معها وقد عرفه ابن هشام بقوله:**" قد يشربون لفظا معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضمينا " [١٠]

لغرض من التضمين:

الغرض الظاهر من التضمين هو التوسّع في المعنى دون الزيادة في اللفظ، وهذا من بديع البلاغة وسحر البيان. فإنّ إبدال حرف الجر بحرفِ جرٍّ آخر أضاف إلى معنى الفعل الأول معنى فعل ثاني، دون أن تزداد كلمات الجملة أو يُزاد في تركيبها. فيصبح الأمر كما قال الزمخشري «إعطاء مجموعِ معنيين»، أو كما قال غيره «أن تؤدّي كلمةٌ مؤدّى كلمتين»، بل إنّه يُضاف إلى معنى الفعلين أحيانًا معنىً زائدًا متحصّلاً من الجمع بينهما!

ففي قوله ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي نصرناه عليهم بأن منعناه منهم، فإنّهم لما أرادوا أن يكيدوا له منعه الله؛ فلم يحصل لهم مرادهم، فكان نصرًا عليهم بهذا الاعتبار.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، فإنّه ضَمّن الشرب معنى الريّ كما قال ابن القيم، أو معنى التلذّذ، فصار معنى الآية يشربون منها مُرتوين متلذّذين بها.

يقول د. فاضل السامرائي: «والعدول إلى طريقةٍ ما في التعبير بأقصرِ طريقٍ ظاهرة من ظواهر العربية، من ذلك ما مرّ في المفعول المطلق من ذكر فعل وذكر مصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق معه، كما في قوله تعالى ﴿وتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ فقد جمع معنى التبتّل والتبتيل، أي التدرّج والكثرة في آن واحد، ومنه ما ذكرناه في قوله تعالى ﴿وادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فقد كسبنا باستعمال المصدر بدلاً من اسم الفاعل معنى الحاليّة، والمفعول لأجله، والمفعولية المطلقة، بخلاف ما لو قال (ادعوه خائفين) فإنّه ليس فيه إلا معنى الحاليّة»[١١].

ومن فوائد التضمين أيضًا: التنبيه، بل إنّ فيه من التنبيه أكثر مما يكون في الالتفات[١٠]، فإنّ الأذن يطرقها بشدّة تغيّر حرف الجر عن الحرف المعتاد، كما في أمثلة التضمين التي افتتحنا بها المقال. والتنبيه يبعث على حضور الذهن، ويقلّل الشرود، ويجدّد النشاط عند القارئ[١٢].

التدبّر في التضمين:

إنّ نورَ المؤمن وهدايَته وصلاحَه وزكاةَ نفسه في الإقبال على كتاب الله، تلاوة وترتيلاً وحفظًا وتفسيرًا وتدبّرًا، وتأمّلاً في أساليبه وطرقه، وزيادة العناية بالقرآن علامةُ التعلّق به والتعظيم له. وكلّ معنى يستفيده قارئ القرآن يزيد في يقينه وتدبّره. وربما كان التضمين من الأساليب التي لا ينتبه إليها العامّة، وهنا يأتي دور طالب العلم في تعلّمه ثم تقريبه للناس وإظهار جماله وروعته، وهذا لا شكّ من جملة تعليم القرآن (خيرُكم مَن تعلم القرآنَ وعلمه) .

فإذا مررت على موضع للتضمين فتوقّف عنده وتعلّمه: ما هو الفعل المضمّن في الفعل المذكور مما يتفق مع حرف الجر ويناسب السياق؟ وماذا يصبح المعنى الواسع بناءً على ذلك؟ وكيف كان هذا التعبير أبلغَ من كلّ فعل لو ذكر منفردًا؟

ونخصص بقية المقال لذكر أمثلة من التضمين، تُجَلّي معناه وأثره في تدبر الآيات، وتفتح الآفاق لقارئ القرآن ليبحث في معاني التضمين فيما يمرّ عليه مما لم نذكر هنا[١٣].

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

قال القرطبي: «إن قيل: لمَ وصلْتَ (خلوا) بـ (إلى) وعُرفُها أن تُوصل بالباء؟ قيل له: خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا»، ويمكن أن نضمّنه معنى سكنوا، فالمعنى إذا انصرف بعضهم إلى بعض فخلوا بهم وسكنوا إليهم أخذوا يتحدثون هذا الحديث سرًّا فيما بينهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الزمخشري والعز بن عبد السلام: (تُكَبّروا) عُدّي بـ (على) لتضمّنه معنى (الحمد)، فيصير المعنى: لتكبروا الله وتحمدونه على ما هداكم.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

آلى –بمعنى حلف– يتعدّى بـ (على) ولا يتعدّى بـ (من) ، وتعدّى بها هنا لتضمين معنى امتنع، قال الزركشي: أي يمتنعون عن وطء نسائهم بالحَلِفِ.

وإنّ عدم إدراك التضمين في الآية أدى إلى الإغراب والإبعاد في تفسيرها، يقول ابن هشام: «ولما خفي التضمينُ على بعضهم في الآية ورأى أنّه لا يُقال: حلفت من كذا بل حلفت عليه، قال: (مِن) متعلقة بمعنى (الذين)، كما تقول: لي منك مبرة» وأنت ترى بُعْدَ هذا القول بل وصعوبة فهمه».

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

تأكلوا تتعدّى إلى مفعول، ولا تتعدّى بحرف الجرّ، لكنّه قال هنا: «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم»، فما الذي تضمّنه الأكل؟ ضمّن الطبري (الأكل) معنى (الخلط)، وضمّنها أبو حيان معنى (الضم)، وابن جُزَيّ (الضم والجمع)، فصار المعنى لا تضموا أموالهم إلى أموالكم آكلين لها. وقال الزمخشري: «فإن قلتَ: قد حرّم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم، فلمَ ورد النهي عن أكله معها؟ قلتُ: لأنّهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال –وهم على ذلك يطمعون فيها– كان القبحُ أبلغَ والذمُّ أحقَّ، ولأنّهم كانوا يفعلون كذلك نعىٰ عليهم فعلهم وَسَمّعَ بهم، ليكونَ أزجرَ لهم».

ال الزمخشري: «اجعلوها مكانًا لرزقهم بأن تتّجِروا فيها، وقال الرازي: وإنّما قال: ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: منها لئلّا يكون ذلك أمرًا بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقًا لهم، بل أَمَرَهم أن يجعلوا أموالهم مكانًا لرزقهم بأن يتّجروا فيها ويثمّروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال. فالمعنى: اتّجروا فيها وارزقوهم من ثمرتها».

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣].

(أذاع) تنصبُ مفعولها ولا تتعدّى إليه، فيقال أذاعَ السرّ، قال الجمل[١٥]: ضمّن أذاع فعل (تحدّث) فعدّاه تعديته، وقال القرطبي: ﴿أَذَاعُواْ بِهِ﴾ أي أفشوه وأظهروه وتحدّثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته. ويمكن أن نضمّنه –أيضًا– معنى: طاروا به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

(تهاجر) يتعدى بـ (إلى) وعُدّي هنا بـ (في)، فضمّن (تهاجروا) معنى (تضربوا).

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

(دعا) يتعدّى إلى مفعول به دون حرف جر، فتقول: دعوت الله، وليس دعوت إلى الله (والمقصود الدعاء وليس الدعوة)، فهنا ضمّن (ما تدعون) معنى تلجؤون إليه، كأنّه قيل: فيستجيب دعوتكم ويكشف ما لجأتم إليه لأجله.

التضمين الصرفي :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(أحسنَ) يتعدّى بحرف الجر (إلى)، يقال: أحسن إليّ، قال الألوسي: «حَمَلَه بعضهم على تضمين (أحسن) معنى (لَطَفَ) ولا يخفى ما فيه من اللطف»، أي أحسن إليه فلطف به من حيث لم يحتسب.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

قال العز بن عبد السلام: تضمن (يستحبّون) معنى يختارون ويؤثرون الحياة الدنيا على ثواب الآخرة، وقال الألوسي: «والفعل مُضمّن معنى الاختيار، والتعدية بـ (على) هي لذلك»، أي أنّهم آثروها على

الآخرة حبًّا لها وتعلّقًا بها، وكذا في مواضع عدّة من القرآن ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، ﴿اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

قال الحَوفي[١٤]: «لم يقل يستمعونه أو يستمعونك، وكان مضمّنًا أنّ الاستماع كان على طريق الهُزْءِ فجاء بالباء ليُعلم أنّ الاستماع ليس المراد تفهّم المسموع. وقال ابن عطية: فكأنه قال: نحن أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به أي هو ملازمهم، ففضح الله بهذه الآية سرّهم».

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

عُدّي الفعل (اصطبر) باللام على سبيل التضمين، وأصله أن يتعدّى بـ (على)، قال الزمخشري: «فإن قلتَ: هلّا عُدّي اصطبر بـ (على) التي هي صلته، كقوله ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؟ قلتُ: لأنّ العبادة جُعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي اثبت له فيما يُورد عليك من الشدائد، يريد أنّ العبادة تُورد عليك شدائد ومشاقّ؛ فاثبت لها ولا تَهِن، ولا يَضِقْ صدرك عن إلقاء عُداتِك من أهل الكتاب إليكَ الأغاليطَ، وعن احتباس الوحي عليك مدّة، وشماتة المشركين بك».

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

(عَكَفَ) يتعدّى بـ (على) كقوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾، ذكر الزمخشري والعُكبري وأبو حيّان: أنّه ضمّن (عاكفون) معنى (عابدون) فعدّاه باللام. وقد يتضمّن أيضًا معنى الصلاة والتقديس المتعدّيين باللام.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

هذا حكاية عن نوح عليه السلام. قال ابن كثير: قَوْله ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ﴾ أَي (وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنْ الْقَوْمِ). وقيل: منعناه منهم، كقوله ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾، وقال المرادي: والأحسن أن يُضمّن الفعل معنى (مَنَعْنَاه بالنصر) من القوم؛ ضمّن (ينصر) معنى (يُجِيْرُ ويمنع)، وذكر أبو حيان والعكبري: عُدّي نصرناه بـ (مِن) لتضمّنه معنى نجّيناه بـ نصرناه أو عصمناه ومنعناه. وقال الألوسي: نصرناه من: أي حميناه منهم بإهلاكهم وتخليصه. وقال بعضهم: نصرناه منتقمين من القوم.

وقد يُقال: ما الفرق بين قولنا «نجيناه من القوم» وقولنا «نصرناه من القوم»؟ والجواب: أنّ في الأول النتيجة تتعلّق بالناجي فقط، فعندما تقول نجّيته منهم أي خلّصته منهم، ولم تذكر أنّك تعرّضت للآخرين بشيء، كما تقول نجّيته من الغرق، ولا تقول نصرته من الغرق، لأنّ الغرق ليس شيئًا يُنتَصف منه. أما النصر منهم ففيه جانبان: جانب الناجي وجانب الذي نجي منهم، فالمعنى: أنّك نجيته وعاقبت أولئك، أو أخذت له حقه منهم .[١٥]

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(خَالَفَ) يتعدّى بنفسه، تقول: خالفه، فحين عُدي بـ (عَنْ) تضمّن معنى صدَّ أو أعرض. وذكر الزركشي والعكبري: تضمّن يخالفون معنى يميلون أو يعرضون أو يعدلون أو ينحرفون أو يزيغون.

وقال الألوسي: أكثر استعمالها بدون (عن) فإذا ذكرت (عن) فعلى تضمين معنى الإعراض، وقيل: على تضمين معنى الخروج: يخرجون عن أمره. ونقل عن ابن الحاجب معنى التباعد والحَيَد أي يحيدون عن أمره بالمخالفة وهو أبلغ من يخالفون.

وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

ذكر الجَمَل أن قوله: (بهادي العمي): مضمَّن معنى الصرف فعداه بـ (عن). أي ما أنت بهاديهم صارفًا إياهم عن ضلالتهم. وقال الألوسي: و«عن» متعلقة بالهداية باعتبار تضمّنها معنى الصرف. ويمكن تضمين (هادِ) معنى (رادٍّ) أي وما أنت برادِّ العمي عن ضلالتهم. فجمع التضمينُ المعنيين: الصرف والردّ عن الضلالة، والهداية إلى الحق.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

الفعل (تُبدِي) يتعدّى لمفعوله، كقوله (وتخفي ما في نفسك ما الله مبديه)، وقوله «إن تبدوا خيرًا أو تخفوه». قال العز بن عبد السلام: ضمّن (تُبْدِي) معنى تُصَرّح فعُدّي بالباء، وكذلك قال الزمخشري. وقال الزركشي: ضمّن (لتبدي به) معنى: تخبر به أو لتعلن؛ ليفيد الإظهار معنى الإخبار؛ لأنّ الخبر قد يقع سرًّا غير ظاهر، وكذا قال ابن القيم.[١٦]

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤].

قال الزمخشري: تعدّى السؤال إلى المفعول الثاني بـ (إلى) لتضمّنه معنى الإضافة، وكذا قال الألوسي: والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بـ (إلى) لتضمّنه معنى الإضافة كأنّه قيل: لقد ظلمك بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب، أو ظلمك بسؤال نعجتك مضافة إلى نعاجه.[١٧]

ويقول د. نديم: ولولا (إلى) –والتي لا يتعدّى بها فعل السؤال– لَمَا فهمنا معنى الضمّ، ولو قال: لقد ظلمك بضم نعجتك لفسد المعنى لأنّه لم يضمها ولا أضافها وإنّما طلب إليه أن يضمّها إليها، كما قال قبلها ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

قال الزمخشري: (أحببت) مضمّن معنى فعل يتعدّى بـ (عَنْ)، كأنّه قيل: أَنَبْتُ حبّ الخير عن ذكر ربي، أو جعلت حبّ الخير مُجزيًا أو مغنيًا عن ذكر ربي.

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فسّرها الزمخشري على وجهها فقال: مِن ذكر الله: من أجل ذكره، أي إذا ذُكر الله عندهم أو تُليت آياته اشمأزّوا وزادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾. ويمكن أن نقدّر تضمين فعل «ضاقت» أو «نفرت» من ذكر الله فكان سببًا لقسوتها.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال أبو حيان: ضمّن (تلين) معنى تطمئن. وقال الزمخشري: فإن قلتَ: ما وجه تعدية (لَانَ) بـ (إلى)؟ قلتُ: ضمّن معنى فعلٍ متعدٍ بـ (إلى)، كأنّه قيل: سكنت أو اطمأنت إلى ذكر الله، ليّنة غير منقبضة راجية غير خاشية. وقال البيضاوي: والتعدية بـ (إلى) لتضمين معنى السكون والاطمئنان.

(والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) الآية (٩): من يرى جواز إنابة

حرف عن أخر. قال: إن (في) بمعنى (مع). أي لندخلنهم مع الصالحين. ومعنى الآية أي في زمرة الصالحين وهم الانبياء أولياء وقيل في مدخل الصالحين وهو الجنة[١٨].

٢- (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين) الآية (٦). من يرى جواز إنابة

حرف عن أخر. قال: إن (عن) بمعنى (على). أي لغني على العالمين. ومعنى الآية (ومن جاهد) نفسه وشيطانه وعدوه الكافر (فإنما يجاهد لنفسه) لأن نفعه راجع اليه وثمرته عائدة اليه والله غني عن العالمين. لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به ولا نهاهم عنه بخلا عليهم.

٣- (ومن الناس من يقول أمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولون إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) الآية (١٠). من يرى جواز إنابة حرف عن أخر. قال: إن (في) بمعنى (باء) و (في) بمعنى (من). ومعنى الآية أي أذاهم له (كعذاب الله) في الخوف منه فيطيعهم فيناق[١٩].

٤- (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) الآية (١٢). من يرى جواز إنابة حرف عن اخر قال: إن (من) بمعنى (عن). أي عن خطاياكم. ومعنى الآية وقال الذين كفروا للذين آمنوا بالله وحده، اتبعوا ديننا وما نحن عليه، ونحمل نحن عنكم ذنوبكم، فنجازي عليها دونكم، وليسوا بحاملين شيئا من ذنوبهم، وإنهم لكاذبون في قولهم هذا. ولما كان نفي حملهم لخطايا غيرهم قد يفهم منه أن الكفار الداعين الى ضلالتهم لا يأثمون إثما زائدا بسبب ذلك رفع ذلك الإيهام [٢٠].

٥- (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق .....) الآية (٢٠). من يرى جواز إنابة حرف عن أخر. قال: إن (في) بمعنى (على). أي سيروا على الارض. ومعنى الآية: (قل سيروا في الارض أي قل لهم يا محمد سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم)[٢١].

٦- (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العالمين) الآية: (٥٨). من يرى جواز إنابة حرف عن أخر. قال: إن حرف (من) بمعنى (في). أي لنبوئنهم في الجنة. ومعنى الآية والذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا ما أمروا به من الصالحات لننزلنهم من الجنة غرفا عالية تجري من تحتها الانه، ماكثين فيها أبدا، نعم جزاء العالمين بطاعة الله هذه الغرف في جنات النعيم[٢٢].

٧- (اتل مآ أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) الآية: (٤٥). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (عن) بمعنى (على). أي تنهى على الفحشاء والمنكر. ومعنى الآية: قوله تعالى " اتل" أمر من التلاوة والدؤوب عليها وقد مضى في " طه" الوعيد فيمن أعرض عنها وفي مقدمة الكتاب الأمر بالحض عليها والكتاب يراد به القرآن. و" أقم الصلاة" الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وركوعها وتشهدها وجميع شروطها وقد تقدم بيان ذلك في " البقرة" فلا معنى للإعادة قوله تعالى:" إن الصلات تنهى على الفحشاء والمنكر" يريد إن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب[٢٣].

٨- (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثنا مودة بينكم في الحياة الدنيا.....) .الآية (٢٥). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (في) بمعنى(من). أي مودة بينكم من الحياة الدنيا. ومعنى الآية يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الاخر وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين[٢٤].

٩- (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون).الآية (٢٤). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر. قال: إن (لام) بمعنى (إلى). أي لآيات الى قوم يؤمنون. ومعنى الآية فقوله تارك وتعالى: فما كان جواب قومه. بيان لما رد به الظالمون على نبيهم إبراهيم عليه السلام بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضع الدلة على صدقة فيما يبلغه عن ربه. ولفظ" جواب" بالنصب، خبر كان، واسمها قوله: إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه. والمراد بقتله: إزهاق روحه بسيف ونحوه، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل[٢٥].

١٠- (الذين صبروا على ربهم يتوكلون). الآية: (٥٩). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (على) بمعنى (باء). أي الذين صبروا بربهم يتوكلون. ومعنى الآية: الذين صبروا أي على دينهم،

وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعده[٢٦].

١١- (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر.....). الآية (٢٩). من يرى جواز إنابة حرف عن أخر قال: إن (في) بمعنى (من). أي وتأتون من ناديكم المنكر. ومعنى الآية فأرسل الله لوطا الى قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطيع السبيل وفشو المنكرات في مجالسهم فنصحهم لوط عن هذه وبين لهم قبائحها في نفسها[٢٧].

١٢-(وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذ لارتاب المبطلون). الآية: (٤٨). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (من) بمعنى (في). أي من قبله في كتاب. ومعنى الآية(وما كنت تتلوا) يا محمد، (من قبله من كتاب) من قبل ما أنزلنا اليك من الكتاب، ولا تكتبوا اي: لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوجيز (إذا لارتاب المبطلون) يعني لو كنت تكتب أو تقرأ الكتب قبل الوحي لشك المبطلون المشركون من أهل المكة. وقالوا: إنه يقرؤه من كتب الأولين وينسخه منها، قال القتادة [٢٨].

١٣- (ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتب وءاتينه أجره، في الدنيا وإنه في الأخرة لمن الصالحين). الآية: (٢٧). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (في) بمعنى (من). أي وءاتينه أجره من الدنيا. ومعنى الآية إن الله لم يبعث نبيا بعد إبراهيم إلا من نسله وهو الثناء الحسن فكل أهل الاديان يتولونه [٢٩].

١٤- (ولقد تركنا منها ءاية بينه لقوم يعقلون). الآية: (٣٥). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن(لام) بمعنى (إلى)، أي إلى قوم يعقلون. ومعنى الآية: أي تركنا من ديار قوم لوط أثارا بينة لقوم يعقلون البر بقلوبهم[٣٠].

١٥- (بل هو آيات بينت في الصدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآيتنا غلا الظالمون الآية: (٤٩). من يرى جواز نيابة حرف عن أخر قال: إن (في) بمعنى (من)، اي بينت من الصدور. يعني القرآن آيات بينات المؤمنون الذين حملوا القرآن [٣١].

يجري على التضمين بهذه الدلالة كثير من أفعال القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}[سورة البقرة: ١٨٧]، يقول الدكتور: محمد نديم فاضل: «فتضمين الرفث وهو مقدمات المباشرة أو المباشرة ذاتها معنى الإفضاء، والتعدِّي بـ(إلى) يمنح العلاقة بين الزوجين لمسة إنسانية تترفع بها عن عالم الحيوان، لمسة حانية، فيها من الرفق والنداوة والشفافية مثلما فيها من سُمُوِّ المشاعر، وتحسر (إلى) هذه عن مسافر وجهها الجميل لتحكي ما اشتملت عليه المشاعر حين جمعت الرفث إلى الإفضاء فيما أحل الله للزوجين في شهر الصيام لتنأى بهما عن عُرام الجسد،والحبس في الرغبات المكبوتة في اللحم والدم بعد أن تستتبع خلفها معنى الستر؛ يتدثر به كلّ من الزوجين، وتتّصل بأفق أرفع من الأرض وبغاية أسمى من اللذة، ترقّ وتَرْقى إلى معارج عُليا... وحَسبُ التضمين أنه جعل في لفظ الرفث نداوة يخضرّ بها ويرمي ظلاله، ولمسة رفافة تنأى عن عُرام الجسد تبتغي الإعفاف والإنجاب، وتوقظ معنى الستر في هذا الحرف (إلى)، فجمع من صنوف البيان ما ذاع صيته على كلّ لسان» [٣٢]

فمقتضى التضمين هنا أن الآية ضمَّت إلى معنى الرفث معنى الإفضاء ولم تُلْغِ دلالة الرفث، وإلّا فلماذا ذكر لفظ الرفث أصلًا إن كانت دلالته هدرًا؟!ولماذا لم يُستبدل بالإفضاء إن كان هو المقصود وحده؟!

ولكن الحقّ أن المزية التي يرجع إليها التضمين هي كما قال الزمخشري وورد نحوه عن ابن هشام وأبي البقاء الكفوي آنفًا: «فإن قلت: أيّ غرض في هذا التضمين؟... قلتُ: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنًى فذٍّ» [٣٣]

التضمين الدلالي :

ثانيًا: اتساع الدلالة من خلال تعدُّد التوجيه الإعرابي للكلمة:

وذلك يكون لأسباب، منها :غياب الحركة الإعرابية: فقد يحتمل الموقع النحوي أكثر من وجه، وتكون العلامة الإعرابية هي الحاسمة في تحديد الوجه المراد، وعندما تكون العلامة مقدرة –غير ظاهرة لأسباب تقتضيها طبيعة اللغة– تتعدّد الأوجه. ومثال ذلك قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى}[سورة الأعلى: ١]، يحتمل الموقع الذي يشغله (الأَعْلَى) وجهين؛ لتعذر ظهور الحركة على الاسم، فيجوز فيه أن يكون في موضع نصبٍ، صفة لـ(اسمَ) الذي عُرِّف بالإضافة، ويجوز فيه أيضًا أن يكون في موضع جر صفة لـ(رَبِّ) الذي عرِّف بالإضافة[٩]. وقوله تعالى: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزلْنَاهُ}[سورة الأنبياء: ٥٠]، يحتمل موقع (أَنزَلنَاهُ) وجهين؛ لعدم ظهور الحركة على الجملة، فيجوز أن تكون الجملة في موضع رفع، صفة ثانية لـ(ذِكْرٌ)، ويجوز أن تكون في موضع نصب، حالًا من (ذِكْرٌ)، لأنه خُصّص بالوصف[٣٤]

وكما في احتمال (مَن) معنى الفاعلية أو المفعولية في قوله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[سورة الملك: ١٤]، والسياق يحتمل المعنيين. وكما في قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}[سورة النجم: ١٨]، فإن الكبرى تحتمل النصب على المفعولية، أي: رأى الآية الكبرى، أو الجر على النعت للآيات.

ولا مانع من الجمع بينهما فلقد رأى العديد من الآيات العظيمة في معراجه، كما رأى الآية الأعظم في لقائه لربه ورؤيته إياه أو رؤية نور جلاله على الاختلاف الوارد في ذلك.

«قال جماعة من أهل التأويل، معناه: رأى الكبرى من آيات ربه، والمعنى: {مِن آياتِ ربه} التي يمكن أن يراها البشر، فـ{الكبرى} على هذا مفعول بـ{رأَى}. وقال آخرون المعنى: {لقد رأى} بعضًا {من آياتِ ربه الكبرى}، فـ{الكبرى} على هذا وصفٌ للآيات»[٣٥].

وهكذا تتعدد وجوه المعنى وتتسع بتعدد وجوه الإعراب.

ثالثًا: تعدد المعنى بسبب الاحتمال في الإحالة:

نستطيع أن نتأمل ذلك في قوله تعالى: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}[ق: ٢، ٣].

عجبُهم إنما كان من كون الرسول –صلى الله عليه وسلم– بشرًا مثلهم {مُنذِرٌ منهُم}، ومن كونه ينذرهم بالبعث والنشور[٣٦].

ويظهر جمال القرآن وإعجازه هنا في توسط هذه الجملة: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} في موضع تصلح أن تكون إحالة الإشارة (هذا) إلى ما قبلها أو إلى ما بعدها، أي: تكون الإشارة إلى ما قبلها وهو قوله: (منذِرٌ منهُم) فيكون التعجب من بشَرِيَّة المنذِر، أو من مجيء منذِر، ومن كونه بشرًا، فيمكن أن تعود الإحالة الأولى إلى أمرين تعجَّب منهما الكفار.

ويمكن أن تكون الإحالة في (هذا) إلى ما بعدها وهو قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، وهو البعث.

ويمكن الجمع بين هذه المعاني كلّها؛ فيقال إنهم تعجبوا من مجيء منذِر، ومن كون هذا المنذِر بشرًا منهم، ومن كونه ينذرهم بالبعث والحساب والعذاب بعد الموت.

وفي هذا جمع بين المعاني الممكنة مما لا يأباه السياق بل يقتضيه أشدَّ الاقتضاء.

– ومن صور تعدد المعنى واتساعه للاحتمال في الإحالة كذلك: ما في قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}[سورة الرعد: ٢٧].

حيث يحتمل الضمير المستتر في (يشاء) الإحالة إلى لفظ الجلالة أو إلى (مَن)؛ والجمع بين الإحالتين يفيد أن الله تعالى يضل مَن أراد الضلالة واختارها على الهدى، وأن ذلك يكون بمشيئة الله تعالى وقدره في الوقت نفسه؛ إذ لا يكون في الكون إلّا ما شاء الله وقدَّره وقضاه.

الهوامش والمصادر:

[١] . الخصائص لابن جني (٢/ ٣١٠).q

[٢] . لخصائص (٢٦٣/٣).q

[٣] . معاني القرآن، للفراء (٢١٥/٣).q

[٤] .ا لاقتضاب، ص(٢٦٢).

[٥] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي، لسان العرب مادة ض–م–ن المجلد التاسع، دار بيروت، طبعة رابعة، ٢٠٠٥، ص٦٤.

[٦] ابن هشام الأنصاري جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١، ص٧٩١.

[٧] ابن المعتز أبو العباس عبد الله، كتاب البديع شرحه عرفان مطرحي، مؤسسة الكتب الثقافية، طبعة أولى ٢٠١٢، ص٨٢.

[٨] الرماني، الخطابي الجرجاني في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد عرفان زغلول سلام، دار المعارف، مصر، طبعة ثالثة، ١٩٧٦م، ص١٠٢.

[٩] سورة البقرة، الآية ١٨٧.

[١٠] ابن هشام الأنصاري، مصدر سابق، ص٧٩١.

[١١] معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي (١٥/٣).

[١٢] الالتفات هو: نَقْلُ الكَلَامِ مِن أُسلُوبٍ إلى آخَرَ، مِنَ الغَيبَةِ إلى الخِطَابِ، وَمِنَ الخِطَابِ إلى الغَيبَةِ وَمِنَ الوَاحِدِ إلَى الجَمعِ، وَمِنَ الخِطَابِ إلى التَّكَلُّمِ، وَمِنَ التَّكَلُّمِ إلى الخِطَابِ. ومن أمثلته: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ فانتقل من المخاطب إلى الغائب، وقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فانتقل من الغائب إلى المخاطب.

[١٣] . تنظر هذه النماذج وأمثلة لها في كتاب: التضمين النحوي في القرآن الكريم: د. محمد نديم فاضل.

[١٤] . علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحَوفي، عالم باللغة والتفسير، (توفي: ٤٣٠هـ).

[١٥] . معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي (١٤/٣).

[١٦] . بدائع الفوائد (٢١/٢).

[١٧] . علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحَوفي، عالم باللغة والتفسير، (توفي: ٤٣٠هـ).
[١٨] : تفسير الخازن: ٥\٤٣
[١٩] : الادوات النحوية ومعانيها في القران الكريم: ٤٠ – تفسير الجلالين\٥٢٢\١.
[٢٠] : تفسير المختصر:
[٢١] : تفسير القرطبي :١٣\٣٣٧
[٢٢] : التفسير الميسر.١\٤٠٣.
[٢٣] : التفسير القرطبي.١٣\٣٤٧
[٢٤] : تفسير السعدي: ١\٦٣٠
[٢٥] : التفسير الوسيط.١١\٢٧
[٢٦]: الحروف والادوات تأثيرها على الأسماء والفعال – تفسير ابن كثير : ٦\٢٩٢
[٢٧]: تفسير السعدي. ١\٦٢٩
[٢٨] : تفسير البغوي.٦\٢٤٩
[٢٩] : تفسير البغوي.٦\٢٣٩
[٣٠] : تفسير السعدي
[٣١] : من اسرار حروف الجر.
[٣٢] . د/ محمد نديم فاضل (التضمين النحوي في القرآن الكريم)، طبع ونشر مكتبة دار الزمان، بالمدينة المنورة، (١/ ٣٦٧).
[٣٣] . الكشاف، للزمخشري. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ، (٢٥٧).
[٣٤] . مغني اللبيب، (ص٧٢٢).
[٣٥] . مغني اللبيب، (ص٥٦١).
[٣٦] . المحرر الوجيز، تحقيق: على عوض وزميله، دار الكتب العلمية، (٦/ ٢٢٦).